# الفصل الرابع

# الإسلام
# بين الغلو والتقصير

obeikandl.com

لقد تحدثنا طويلاً عن الغلو ولعل سائلاً يتساءل : فأين التقصير إذاً وهو من أدواء الأمة المستعصية على العلاج والدواء ؟ .. وأين الحديث عن التفريط بعدما تحدثتم عن الإفراط ؟ .. ألا يستحق التفريط فى حديثكم ولو شيئاً يسيراً كما تحدثتم عن الغلو والإفراط ؟ قلنا : لهذا السائل : معك حق فيما ذهبت إليه ، ولكننا اليوم نعالج الغلو ونتصدى للحديث عن الإفراط ، ولكن لا مانع من الحديث فى نهاية هذه الدراسة المختصرة عن التفريط والتقصير ، فهذا الداء الخطير لا يقل خطراً عن الداء الأول .. وهل أضاع الدين إلا التفريط فى حدوده وحرماته ؟ .. وهل ضاعت القدس إلا من تفريط المسلمين فى دينهم ؟ .. وهل ضاعت الأندلس من قبل إلا نتيجة تفريط وتقصير المسلمين فى دينهم وسعيهم وراء الجاه والسلطان وتنازعهم عليه ؟ .. وهل ضاعت البوسنة والهرسك إلا نتيجة تفريط المسلمين فى بلادهم ؟ .. وهل ضاعت أعراضهم فيها إلا نتيجة خذلان المسلمين لهم وضَنِّهم حتى بالدينار والدرهم عن نصرتهم ؟ وهل تمكن الشرق الملحد والغرب الصليبى من أمة الإسلام إلا بتفريط هذه الأمة فى دينها ونسيانها لحق ربها عليها ؟ وهل تشرذمت أمة الإسلام أشتاتاً وتمزقت أشلاء إلا نتيجة

لتقصيرهم فى حق ربهم وغفلتهم عن واجبات دينهم التى تأمرهم بأوضح عبارة وأجمل بيان وأنصع كلام : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [ آل عمران : ١٠٣ ] ، وهل تمكنت دويلة إسرائيل من أمة العرب والإسلام إلا بتضييع هذه الأمة لكثير من أوامر ربها ؟ فاليهود فى فلسطين لا يجاوز عددهم خمسة ملايين والعرب يجاوز عددهم المائتين والخمسين مليوناً .. أما المسلمون فقد جاوز عددهم المليار ..!

وصدق من قال من علماء المسلمين : « لو كان العرب ناموساً وطَنَّ فى وقت واحد فى أذن اليهود لأقلقهم وأتعبهم وكدر عيشهم ونكد حياتهم » فالمعاصى تورث الذل ، ولذلك كان السلف الصالح يقولون فى دعائهم : « اللَّهم أعزنا بطاعتك ولا تذلنا بمعصيتك » ، وصدق اللَّه العظيم : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [ فاطر : ١٠ ] فكل عزة إنما هى مستمدة من عزة اللَّه ، فاللَّه لا يعز أولياءه فى الدنيا فحسب ولكن يعزهم فى الدنيا والآخرة ، وهذه واللَّه العزة التامة ، وهل أصبحت دول الإسلام والعروبة من أفقر دول العالم وأحوجها وأصبحت تتسول دول العالم الأول - كما يقولون - إلا بتفريطها فى دينها وعصيانها

لربها ومولاها ؟ وهى التى تمتلك كنوز الدنيا كلها ، وتمتلك الذهب الأسود والأبيض وتجرى فيها أعظم أنهار الأرض ، وأصبح المسلمون فى ذيل العالم اقتصاديا حتى عرفوا فى العالم كله بالعالم الثالث ، بعد أن كانت أيام الصدر الأول من الإسلام هى العالم الأول ، وهى مصدرة الحضارة إلى الدنيا كلها .

وهل سمعنا قبل ذلك عن ملايين الشباب الذين يدمرون أنفسهم وأسرهم بالمخدرات إلا بعد تفريط الأمة فى دينها ؟ وهل سمعنا عن شيوع الجرائم الأسرية التى يندى لها الجبين إلا منذ ذلك الحين ؟ فسمعنا عمن يقتل أمه ، وسمعنا عمن يقتل أباه ، وسمعنا عمن يطرد أمه من مسكنها ليعيش فيه وتعيش هى فى الشارع ثم فى دار المسنين ، ومن يقتل شقيقه من أجل بضعة جنيهات ، هل سمعنا بشىء من ذلك التردى الشنيع إلا منذ تخلت الأمة عن دينها وأعطت ظهرها لإسلامها .

إن الغلو والتقصير وجهان لعملة واحدة ، والإفراط والتفريط صورتان لشىء واحد ، وكلاهما خطر على الإسلام ، وكلاهما ضار بالدين . فالدين وسط بين الإفراط والتفريط والغلو والتقصير : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [ البقرة : ١٤٣ ] وليس معنى :

﴿ وَسَطًا ﴾ أنها وسط بين الأشياء بالمعنى الرياضى ، ولكن معناها أنها أمة العدل والحق والخير والصلاح . وقد جاءت شريعة الإسلام سمحة طيبة وجاءت بالعدل والميزان : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾ [ الرحمن ] فلا طغيان ولا إخسار فى الميزان ، فالإسلام جاء لينصف سيدنا عيسى وأمه البتول السيدة مريم عليهما السلام ، فرفض الإسلام غلو النصارى فى عيسى الذين جعلوه إلها أو ابنا للإله ، ورفض فى الوقت نفسه تفريط اليهود الذين حاولوا قتله ورموا أمه الطاهرة بأشنع الأوصاف ، فعدل بين الفريقين ورفض أهل السنة غلو الشيعة فى على رضى اللّه تعالى عنه ورفضوا فى الوقت نفسه تفريط الخوارج فى حق على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه ، فعدلوا بين الفريقين فلم يرفعوا علياً فوق درجته كما فعلت الشيعة ، ولم يخفضوا علياً ويبخسوه حقه وفضله وعطاءه وصلابته كما فعل الخوارج ، ولذلك قال العلماء من السلف الصالح وهم يشرحون فكر وعقيدة أهل السنة والجماعة : إنهم وسط بين الغالين والمفرطين فى العقائد والسلوك والمعاملات .

وعلى كل من يريد أن ينهج منهج الإسلام ويقتفى صراطه المستقيم فعليه أن يسلك سلوكهم ويقتفى آثار أهل السنة والجماعة ، وعلى مسلمى اليوم أن يقتفوا آثار السلف الصالح الذين نهجوا منهج الحق وتشربوا وسطية الإسلام وعدله واقتفوا صراطه المستقيم ، فلم يطغوا الميزان ولم يخسروا فيه ، ولكنهم أقاموا الوزن بالقسط والحق فعلى مسلمى اليوم أن يكونوا وسطاً بين دعاة التساهل ولو فى أصول الدين ، والتجمع ولو على حساب العقائد ، وأن يكونوا وسطاً بين الخوارج الذين يكفرون المسلمين بالمعصية ، والمرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب ، ويقولون : إن فرعون موسى مؤمن ، وأن يكونوا وسطاً بين اليهود الذين التصقوا بالمادة والدنيا ، وأهملوا صلاح القلب والروح ، وبين النصارى الذين ابتدعوا الرهبانية وتركوا الأخذ بأسباب صلاح الدنيا وتعميرها ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [ الحديد : ٢٧ ] أى أن اللّه لم يكتب عليهم الرهبانية ولكنهم ابتدعوها من عند أنفسهم ، ولكن الذى كتبه اللّه عليهم هو ابتغاء رضوان اللّه سبحانه . فعلى المسلم أن يجمع

خيرى الدنيا والآخرة وصلاحهما وفلاحهما ويتخذ أسباب الدنيا بجوارحه ويتوكل على اللَّه بقلبه ، فالتوكل عمل القلب واتخاذ الأسباب عمل الجوارح ولا تعارض بينهما ، وأن يكون وسطاً بين المقدِّسين للعقل الذين يقدمونه على النقل الصحيح إن كان هناك ظاهر تعارض بينهما ، وبين المغيبين للعقل تماماً ولو كان فى فهم النص وشرحه وتوضيحه وبيان ما غمض منه والوقوف على حكمة اللَّه الخفية فيه ، فللنص الصحيح القاطع مكانه الصحيح المقدم على العقل وللعقل مكانه السليم فى فهم النص وشرحه واستنباط حكمته وعلته مع أن العقل السليم السديد لا يتعارض أبداً مع النص الصحيح ، وأن يكون وسطاً بين الذين يهملون النصوص الشرعية الثابتة بدعوى مراعاة مقاصد الشريعة ، وبين أولئك الذين يغفلون مقاصد الشريعة الكلية بدعوى مراعاة النصوص .

وأن يكون وسطاً بين المستغرقين فى الحياة السياسية على حساب التربية الإسلامية الصحيحة ، فيشب الفرد المسلم لا يعرف إلا الكذب والغيبة والمكر والدهاء ولا يهتم بعبادة أو صوم أو صلاة أو أمانة أو خلق كريم ، وبين المهملين للسياسة بالكلية بدعوى التفرغ

للتربية الإسلامية حتى لا يشعروا بما حولهم ولا يعرفوا ما يحاك للإسلام فى كل مكان ، ويغفلون عن رسالة الإسلام العالمية .

وأن يكون وسطاً بين الذين يأخذون الحضارة الغربية بخيرها وشرها ويستوردون أفكارها وأخلاقها وسلوكياتها ، وبين الذين يرفضون الحضارة الغربية بالكلية حتى ما كان منها مفيداً ونافعاً للمسلمين ولا يستطيع المسلمون أن يتقدموا بدون هذه العلوم فالمسلم يأخذ العلوم النافعة المفيدة المجردة مثل الكيمياء والطب والهندسة وما شابهها ، ويترك أفكار الغرب ومبادءهم وأخلاقهم التى تتنافى مع شريعة الإسلام السمحة ، وأن يكون وسطاً بين دعاة الثبات ولو فى الوسائل والآلات مثل الكمبيوتر والإنترنت ، وبين دعاة التطور والتغيير ولو فى مبادئ الإسلام الأساسية وغاياته العظيمة .

لقد قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إن الدين يسر » (١) وهذا حق .. ولكن أن ينخلع البعض من شريعة الإسلام تحت

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى [٣٩] عن أبو هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

دعوى اليسر ، كلا .. فهذا لا يدخل تحت معنى الحديث الشريف العظيم ، فهناك فريق من غلاة العلمانيين يريد أن ينقل الناس خارج الشريعة الإسلامية تحت دعوى أن الدين يسر ، ويريدون أن ينقلوا الناس إلى الحرام تحت هذه الدعوى ، ويريدون منهم أن يتمردوا على ربهم ، ويقولون فى بساطة لهم : « إن الدين يسر » ، ويريدون منهم أن ينخلعوا عن دينهم بحجة هذا الحديث العظيم الذى هو براء من كل هذه المعانى .

فليس من معانى اليسر التحلل من الدين والوقوع فى الفواحش والكبائر ، وليس منه أن يرى الإنسان الفاحشة والمنكر فى أهله وأسرته ثم يغمض عينيه حتى لا يتهم بالغلو والتشدد .

وليس منه أن يقع المسلم فى الشبهات فى الدين والعرض حتى لا تلحقه تهمة الغلو وسوط التشدد .

وليس منها الوقوع فى الكبائر والمحرمات تحت دعوى أن اللَّه غفور رحيم وأن الدين يسر .

وليس منها تلقف هفوات العلماء وسقطات الأئمة لتكون حصيلته من العلم والعمل هى البضاعة المزجاة التى لا تنفعه فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وليس من معانى اليسر تبرج النساء والاختلاط المحرم بين الرجال والنساء وتفشى الإدمان وشيوع الفوضى فى دنيا الناس تحت دعوى التحضر ويسر الشريعة وروح القرن الواحد والعشرين .

ولكن المعنى الحقيقى لليسر أن تفعل وتعمل ما عمل به رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الذى ما خير بين أمرين مباحين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه . كما ورد فى الصحيح : « ما خير رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه » (١) .

فالرسول صلى اللَّه عليه وسلم كان أكثر الناس تيسيراً على أمته ورفقاً بأمته ورحمة بأمته ، وهو الذى قال له ربه : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [ آل عمران : ١٥٩ ] ورغم أن الرسول صلى اللَّه عليه وسلم كان دائماً يختار أيسر الأمرين المباحين إلا أنه كان أكثر الناس صدعاً بالحق ودعوة إلى اللَّه وبياناً للحق وأمرا بالمعروف ونهياً عن المنكر .

---

(١) رواه البخارى [٦٤٠٤] ومسلم [٧٧/٢٣٢٧] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها .

فاليسر لا يكون أبداً فيما حرمه اللَّه ؛ لأن اللَّه سبحانه لم يحرم شيئاً فيه مصلحة لعباده ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [ الملك : ١٤ ] وليعلم كل مسلم أن اللَّه لا يكلف عباده إلا بما يطيقون ويتحملون ، أما ما فى هذه الأوامر من بعض مشقة ظاهرة فهى مشقة متحملة لها فوائدها على البدن والنفس والقلب ، مثل مشقة الصوم وصلاة الفجر فى الشتاء والظهر فى الصيف ، فهو سبحانه يعلم عباده ، ويعلم ما يشق عليهم ، وما يستطيعونه ، وما لا يستطيعونه ، وهو مع هذا هو اللطيف بهم الذى يقبل منهم القليل ويجازيهم عليه بالكثير .

فحاشا للَّه أن يأمر عباده بما لا يستطيعون وهو القائل فى كتابه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ . [ البقرة : ٢٨٦ ] ولهذا لا يضاد معنى اليسر أن يأخذ الإنسان نفسه بعزمات الإيمان ما دام لم يلزم غيره بذلك .

ولقد جاءت الشريعة السمحاء بالرخصة والعزيمة ، وشرعت الرخصة فى مواطن وشرعت العزيمة فى مواطن أخرى ، فلكل منهما موضع ، ففى موضع الرخصة يشرع له أن يأتى بالرخصة استناداً لقوله صلى اللَّه عليه وسلم : « إن اللَّه يحب أن تؤتى

رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » . [1] ، ولكن على كل مسلم ألا يترخص حيث لم ترخص الشريعة له ، ويستحب له تجنب الترخص الجافى وخاصة إذا كان قدوة وإماماً فى الناس .

وفى الختام نقول إن الدين يضيع بين غلو المغالين وتقصير المقصرين ، فلا تغال مع الغالين ، ولا تقصر مع المقصرين ، وخذ بهدى نبيك الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم فى كل وقت وحين .

○○○

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [٣٥٤] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقال الأرناءوط : إسناده صحيح .